

مهندس القلوب: فضيلة الشيخ ألوارلي أفه

سؤال: حبذا لو أشرکتونا مشاعرکم ومعرفتکم بفضيلة الشيخ "ألوارلي أفه": شخصيته وأسرتة وأُفقه الروحي ورسائله الدَّعوية وأثره فيکم؟

الجواب: الحقيقة أنَّ الحديث عن شخصية عظيمة كهذه وإبراز صورتها كاملةً أمر يفوق طاقتي؛ فأعترف لزاماً بأدنى الأمر أنني ليس لدي من الفقه ما يحيطني علماً بحياته، وعالمه الفكري، وأفقه القلبي والروحي بكل خلفيته؛ ثم إنه لما رحلت تلك الشخصية العظيمة وحلَّقت إلى أفق روحها كنتُ في السادسة أو السابعة عشرة من العمر؛ نعم، ما إن أبصرت نور الحياة حتى وجدتني على ضفاف هذا المنهل العذب المورود لكن أني لفتى في هذه السن أن يستفيد بحق من إنسان عظيم رحب الأفق مثله، فليُنظر إلى ما سأذكره وأعبر عنه في ضوء وعيي المحدود وضعف مهارتي ورؤيتي الفتية يومئذ.

دوحة نيرة مباركة

نشأ فضيلة الشيخ "ألوارلي محمد لطفي أفندي" في دوحة كأنها نبع مبارك فياض؛ فأبوه حسين أفندي وشقيقه وهبي أفندي شخصيات عظيمة جداً، لم أر والده لكن حسبنا في التعريف بفضل ذلك الشخص المبارك وكمالاته هذه الواقعة:

قدم الشيخ محمد لطفي ووالده حسين قنديغني أفندي -وهما من آل البيت- إلى تكية الشيخ الكُفْروِي في بَتْلِس ليتسبا إلى طريقته، فلما رآهما كأنه اكتشف ما لديهما من ملكة واستعداد، فاعتنى بهما أيما عناية، واهتم بهما اهتمامًا عظيمًا، وأوعز إليهما بخلافته فورًا دون امتحان ولا سير وسلوك ولا خلوة أربعينية؛ نعم، لا يعرف قدر الجوهر إلا الجوهري، ولا الذهب والفضة إلا الصائغ، وهذا الشيخ الكفروي ما إن رآهما حتى عرف قيمتهما وقدرهما لأنه جوهري يعرف قدر الجواهر، فأوعز إليهما بخلافته؛ إنه أمر أذهل تلاميذ الشيخ الكفروي فراحوا يتناولون عليهما في الكلام ليلاً، وإذا الباب يُفْتَح على مصراعيه، والشيخ الكفروي يقول: "يا أولادي، إن حسين أفندي ومحمد لطفي أفندي لا حاجة بهما إليّ، وإنما أَتْنَا بهما كمالتهما":

وَأَنَّى لِأَرْبَابِ الْكَمَالِ بُلُوغَهَا إِلَّا بِهِ

وما في فضة ولا ذهب غنى إذا فُقِدَ الْكَمَالُ

فماذا يغني عنك الذهب والفضة ولو كان مثل كنوز قارون، ما دمت لم تبلغ الكمال!

وأخوه وهبي أفندي بحر أيضًا، فالصمت سمته الدائم، وكان لهذا الصمت تأثير يحدث تموجات متنوعة في روح الإنسان، وكان لوالديّ توجّه صادق عميق إلى كلّ منهما، وكذلك كان جدي يُكِنُّ لهما احترامًا عظيمًا، وكانا ينزلان ضيوفًا عليه في منزله، وكان وهبي أفندي أكبر سنًا من الشيخ ألوارلي أفه، ولما توفي ﷺ كنت في الخامسة من عمري، وأظن أن الشيخ كتب هذا البيت في رثائه:

"بَعْدْتُ عن الأخيار حتى إنني غَدْتُ "واحسرتاه" ورد لسانيّ!"

نغمات حرّى تلهب الأرواح

كان لجؤانية الشيخ ألوارلي أفه عمق جيّاش بالعشق والهيجان، وحاله في مجالس الذكر مثال حي لثرائه القلبي هذا، كان نقشبندياً وقادرياً في نفس الوقت؛ فكانت مجالس الذكر عنده نقشبندية أحياناً، وقادرية أحياناً أخرى.

وفي تلك المجالس كان فضيلته يتوجّه بكل ذاته إلى الحق تعالى، وتلهبه تلك النغمات وتحرقه، فيغيب عن نفسه أحياناً، ويحدث فيمن حوله حالةً روحيةً مصطبغةً بصبغته الخاصة، وينشر في القلوب نارَ العشق، فإذا انفعل أحدهم، ففاضت عيناه من الدمع سرت حالته هذه إلى الآخرين أيضاً، وأدخلتهم جميعاً في مناخ من العشق والانفعال؛ أجل، إنه مناخ عشق وانفعال ما زلتُ أشعر بآثره رغم أنني كنت طفلاً عندما شهدت هذه الأحوال.

كان فضيلته عاشقاً للنبي ﷺ عشقاً خالصاً، جاء أحدهم يوماً وقال له: "رأيتُ في شوارع المدينة المنورة مخلوقات كثيرة جربة"، فردّه قائلاً: "صه! فمثل هذا لا يُقال ولو على كلاب المدينة! نفسي الفداء لها بل حتى لكلاهما الجرباء من أجل رسول الله؛ وكلامه هذا كان يقوله بكلّ ذاته بإخلاص نابع من صميم قلبه حتى كأنه يقوله وهو يغيب ويفنى في شخصية رسولنا المعنوية ﷺ، وإليك شعراً له يجلّي حبه العميق لرسول الله ﷺ:

إنك لأنت الشاهد المقدس وعالمنا بشمسك قد تزينا

مُخَمَّس الضفائر وحاجباك للنفود زينا

والكون قاطبةً لم يبلغن مقدار شعرة منك ولا يَزِنُ
ففي الكونين فاح عبير عنبر من شعرة منكم يا سيدي فليهنأُنْ
وكانت تُشَدُّ تلك المدائح النبوية في مجالسه، فتهيِّج الحاضرين وهو
أولهم، وكان يترنم أحياناً بمثل هذه الأبيات:

لَكَ قَلْبِي عاشقٌ يا حبيب فما السبب؟
جمالكم كالشمس إذ سطعت، فيا ترى هذا السبب؟
وحاجب منكم بدا قاب قوسين فلا عجب
وضورتك سورة الرحمن، يا ترى هذا السبب؟
وأحياناً يرفع صوته بها حتى لكان المكان يرتعش وكذا كلُّ من حضر.

لا يعرف الفضل من الناس إلا ذوهه

كان الشيخ سلطاناً في الكلام، يذهب مذهب أهل العروض في شعره
الذي يترنم فيه بإلهامات روحه، ورغم أنه شاعرٌ مُفْلِقٌ إلا أنه لم يكن يضيق
بما يُشَدُّ بين يديه لمشايخ آخرين، بل يشجع على ذكرها، فإن كانت حقاً
أجلّها ووقرها أيّاً كان قائلها، ثم يتبناها وكأنها بنات أفكاره، ويُقدِّرها
قدرها، وحاله هذا مقياس مهم لرصد أفقه وعالمه الفكري والشعوري،
ولإدراك مدى فضله وعظمته.

وإليكم حادثة سمعتها من أخينا الكبير "صالح أوزجان"، ولها أهمية
بالغة عندي؛ فهي تكشف عن فضل الشيخ وغنى قلبه:

في مطلع الخمسينات قدم الأخ الكبير "صالح أوزجان" إلى مدينة
"أرضروم"، وقابل الشيخ وقَبِلَ يديه، ثم قال له: "شيخي الفاضل، ثمة
عالم يُدعى "الأستاذ بديع الزمان"، كتب رسائل عن الدين والإيمان،
أسماءها "رسائل النور"، ونحن نسعى لنشرها في كلِّ العالم، ونَعُدُّ السير

لإنقاذ جيل الشباب خاصّة"، فردّ عليه الشيخ قائلاً: "آه! ليت لي عينا
تُبصران لمساعدتكم في نشرها".

أجل، الفضل هو أن تعترف بفضل أهل الفضل، وتُظهر لهم كلَّ
احترام وتقدير.

كلمات يتردّد صداها في أذني

وأستميحكم عُذراً في سرد حادثتين لا يمكن أن أنساهما، وقَعَتَا لهذا
الشيخ العظيم الذي أشعرُ في أعماق روحي بأن معرفتي به عناية ربّانيّة:
لما شرعنا في دراسة كتاب "مُلا جامي"^(٩٦)، توجهتُ إليه أنا وزملائي،
فإذا به جالس مع عدد من أثرياء أرضروم، فلما رآني قال لهم: "سأسأل
تلميذي هذا سؤالاً، فإن أجاب فادفعوا له كذا وكذا من المال"، فلم يسألني
إلا عن مواضع من الكتاب أعلمها جيّداً فأجبتُ عليها كلّها، فأعطوني
ما حدّده الشيخ، وأظنه نحو مائتي ليرة يومئذٍ، وربّما كانت تكفي يومئذٍ
لأداء فريضة الحج، وكان الشيخ أعشى فلم يعرف كم جمعوا من المال،
لذا سألني فأجبتُه، فقال: "هذا كثيرٌ عليك، سأعطيه لـ"دميرجي عثمان
أفندي" ليسدّ به احتياجات المدارس".

كنا نعيش في فقر مُدقّق ونحن طلاب في المدرسة في "أرضروم"،
حتى إنّنا في بعض الآونة لا نكاد نجد الخبز والجبن ثلاثة أيام أو أربعة،
وكان أبي إماماً براتب، فكان يعطيني بضع ليرات، لكنها لم تكن تكفيني...

(٩٦) - مُلا جامي (١٤١٧هـ/١٤١٤م - ١٤٩٢هـ/١٨٩٨م): هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد الجامي، نور الدين، مفسر
فاضل، ولد في جام (في بلاد ما وراء النهر) وتوفي في هراة. له مؤلفات تقارب المائة، وله كتاب في النحو، صنّفه
شرحاً لكتاب "الكافية لابن الحاجب" لخص فيه ما في شروح الكافية على أحسن الوجوه وأكملها مع زيادات من
عنده سماه "الفوائد الضيائية".

وكم قضينا من الأيام بحاجةٍ إلى ثمن الخبز!

وبينما كنّا نلتوَّى من الجوع ذهبنا وبعض الأصدقاء إلى التكية مع "طيب أفندي" حفيد أخ الشيخ، وكان بجوار التكية مستودع تبن، يستخدمونه بيتًا للمؤنة، فأثيناها ونظرنا من ثقب بابه، فاشتهدنا بطيخًا رأيناه فيه، وكان الشيخ يصلي، ثم فُتح الباب، فقال لنا الشيخ: "تعالوا يا أولاد، سأتيكم بطيخ وأقطعكم بيدي".

أجل، كم شهدنا من أمثال هذه الحوادث، فلنا أن نقول: إننا وجدناه إنسانًا بعيد الغور، ذا أفقٍ واسع وبصيرة نافذة، يفهم المرء من حاله، ويقرأ جوانبته.

وحمادى القول: حسبي أني عرفته وإن لم أستطع أن أستفيد منه حق الاستفادة، وهذه عناية ربانية، فلله الحمد على هذا الفضل والعطيّة.

أما يوم أن رحل الشيخ إلى الرفيق الأعلى، فقد كان والدي رحمه الله في أرضروم، وكنا نستريح معًا في بيت خالته رحمها الله، وفجأةً تناهى إلى مسامعي ناع ينعي الشيخ، فنهضتُ من مكاني فورًا، واتجهتُ صوب مدارس جامع "قُورْشُونْلُو"، فوجدتُ الأصدقاء ييكون، فتوجهتُ إلى بيت شيخنا رحمه الله، وكان يقيم ببيت في حيّ "مُومْجُو"؛ وحضر الجنازة أيضًا مفتي أرضروم "صادق أفندي" والعلامة "ثاقب أفندي"؛ وغسلاه بأنفسهما ولم يأذنا لأحد بذلك، وكان يومًا شاتيًا حمل فيه الشيخ إلى قرية "ألوار"، ودفن هناك؛ فتوافد الناس جميعًا على القرية -رغم الشتاء والثلج- ليشهدوا تشييع الجنازة إلى مثواها الأخير.

نسأل الله سبحانه أن يحشرَ هذا الرجلَ العظيمَ تحت لواء سيّدنا وحبيبنا محمد ﷺ، وأن يُسكنه معه في الفردوس الأعلى. آمين.

لَيْتَ نَافِعَةٌ وَأُخْرَى بَلَا فَائِدَةٌ

سؤال: حالة التأوه والتشكي والعيويل التي يُعَبَّرُ عنها في القرآن الكريم على نحو: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۚ﴾ يَا وَلَيْتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ (سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٢٥/٢٧-٢٨)، ما الذنوب التي تُفَرِّزُ تلك الحالة في الآخرة؟ وما الأمور التي يجب مراعاتها لئلا نقع يومئذٍ في شباك حَسَرَاتٍ عَقِيمَةٍ؟

الجواب: مطلع الآية الكريمة: ﴿وَيَوْمَ﴾ إخبار عن يوم مرعب، ثم ذكرت أن الظالم في هذا اليوم المدهش يعضّ على يديه وقد غرق في مشاعر الندم والأسف، و"العض على اليدين" كناية عن الشعور بالندم في أسَى وحسرة وغمٍّ.

وكنّت الآية عن الندم الذي يشعر به الظالم بهذا: ﴿يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾، ولا يقتصر شعور الندم الذي يحس به الظالم على هذا فحسب، بل إن العبارات التالية لتعبّر عن حالة الندم التي تسيطر فيها مشاعر الحزن والغم: ﴿يَا وَلَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فَلَانًا حَلِيلًا﴾ أي: ليتني لم أتخذ فلانًا الخائن الطائش صديقًا، ولم أصفق له، ليتني لم أسلك سبيل الضالين!.

بيد أن تمنياته بـ"ليت" لن تغني عنه في الآخرة شيئاً ألبتة، بل ستضاعف ندمه، إن قوله "ليت" هناك سيضاعف مصيبته لأنه بذل طاقة بلا فائدة، وعبارات الندم هذه ستُقال في الآخرة، أو عندما تبلغ الروح الحلقوم حين تودّع اليد أختها والرجل صنوها إبان الانتقال إلى حياة البرزخ أولى مراحل عالم الآخرة، وأياً كان التوقيت فتلك الكلمات مملأى بالأسف والحسرة والشجن يقولها من ضيّع وأهدر ما في يده من فرص عن وعي منه.

”لَيْتَ“ الكبرى

إن ثمة ذنوباً وآثاماً كثيرةً يتلوى الإنسان منها في الآخرة ندمًا وحرزًا بل إنها تحرقه وتكويه بنارها في أعماقه، وعلى رأسها الكفر؛ لأن الكون برمته كتابٌ يعرف بالله بكل جملة وكل كلمة وكل حرف منه؛ أجل، حين يصغي الإنسان إلى كتاب الكون بإنصاف دون أن يستبق الأحكام سيسمع كل كلمة بل كل حرف يردد: "لا إله إلا الله"؛ ولهذه الحقيقة الواضحة أيما وضوح رأى الإمام الماتريدي أن من لم تبلغهم دعوة نبي مكلفون بالإيمان بالله تعالى، لأنهم حين ينظرون في كتاب الكون سيحكمون بلا شك بوجود خالقٍ وإن لم يعرفوه ﷻ بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، ولم يعرفوا ذاته تعالى من طريق النبوة والوحي، فزيد بن عمرو بن نفيل عمٌ سيدنا عمر بن الخطاب -أو ابن عمه- رضي الله عنه كان يعترّ في العصر الجاهلي عن هذا بقوله: "اللَّهُمَّ إِنِّي لَوْ أَعْلَمُ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيْكَ عَبْدُكَ بِهِ، وَلَكِنِّي لَا أَعْلَمُ"، ثم يسجد على راحلته ^(٩٧)؛ فلا ندم ولا حسرة في باب "ليت" أكبر من أن تبلغ الروح الحلقوم وقد حيل بينها وبين الإيمان بالله تعالى. ومن الباعث على قول "ليت" في الآخرة الضلالُ بعد الهداية؛ إذ ليس بين الإيمان والكفر وبين الهداية والضلالة سوى حجاب رقيق،

ورب أمرٍ صغيرٍ يَرِجُ بالمرء في الجانب الآخر؛ لذلك فإننا نحن المؤمنين ندعو الله تعالى أربعين مرةً في الصلوات الخمس وسننها بأن يهدينا الصراط المستقيم؛ ثم نسأله أن نسلك سبيل مَنْ أَسْبَغَ عَلَيْهِمْ سُبْحَانَهُ نعمه قائلين: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ (سورة الفاتحة: ٧/١)، وآيةً أخرى تذكر أن هؤلاء الذين مَنْ الله عليهم بِنِعْمِهِ هم النَبِيُّونَ والصَّدِيقُونَ والشهداء والصالحون^(٩٨)؛ ففي كُلِّ يومٍ نَسْأَلُ الله تعالى في صلواتنا أن يهدينا صراطَ تلك الزُّمَرِ الأربع؛ ثم نَسْتَجِيرُ بِكَفِّهِ تعالى ورحمته أن نكون ممن غَضِبَ عَلَيْهِمْ فَضَلُّوا بعد الهدى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (سورة الفاتحة: ٧/١).

ومن الوهم والخيال المحض أن نفكر على هذا النسق: "ها نحن قد عثرنا على طريقنا، ومن الآن فصاعدًا سنبلغ هدفنا دون أن نزيغ أو نزلَّ أو نتعثر ونتكسر، ودون أن نُضَلَّ ونعلق بحبال الشيطان ألبته ونحن في هذا الطريق"؛ فمن ذا الذي يضمن لك السير على هذا الطريق حتى تلحق بربك؟؛ بل من أمن العاقبة كان عرضة للخطر، ذلك أنه يُخْشَى على عاقبة مَنْ لَا يُخْشَى على عاقبته؛ أجل، على الإنسان أن يرتعد ويرتعش في كل حين حذرًا من الضلال بعد الهدى، وعليه أن يكون دائمًا في هذا الأمر بين شدٍّ وجذب معنوي؛ فليتوسل العبد إلى الحقِّ تعالى دائمًا أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يقيه هَمَزَ الشياطين ولَمَزَهم؛ فما أثمرها من جوهرة يود شياطين الإنس والجن سرقتها وقد نصبوا لها شباكههم، إنها حقيقة الإيمان التي بها ينال المرء الجنة، ويحظى بالرضوان، ويغدو أهلًا لرؤية جمال الله تعالى، فالذي عليك فعله هو أن تستمسك بهذه الجوهرة

(٩٨) ﴿وَمَنْ يُلَاحِظْ إِلَهَ الْوَسْوَاسِ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ (سورة النساء: ٦٩/٤).

الثمينة، وتصونها وتحرسها من شياطين الإنس والجن، وتكون على وعي وبقظة دائبة تجاه هذا الأمر.

أَوْجُهُ الضَّعْفِ الَّتِي تُخَسِّفُ بِالْإِنْسَانِ الْأَرْضَ

ومما يجعل الإنسان يتأوه آهات أليمةً انحرافه عن الصراط المستقيم بوقوعه فريسةً للفيروسات التي عددها فضيلة الأستاذ بديع الزمان في "الهجمات الست" ^(٩٩)؛ فكلُّ منها كفيل بأن يصرع الإنسان، أي كما أن حب الجاه والمكانة واللهث وراء الشهرة من المهلكات، فكذا الخوف فإنه وحده قد يُهلك العبد ويُرديه، وكذا الطمع، والعنصرية، والأنانية، والكسل، والانغماس في الترف قد تهوي بالعبد في مكان سحيق، ولما كان بوسع كل واحدة من نقاط الضعف الست الخبيثة أن يقضي على الإنسان، فإنها إن اجتمعت معًا في آن واحد لن تصرعه فحسب، بل إنها -نسأل الله السلامة- ستهوي به في أسفل سافلين؛ أجل، قد يصاب الإنسان بهذه الفيروسات في أي لحظة ولو كان من أهل الإيمان والإسلام، فمن سيطر عليه حب الشهرة قد يمسح وجه أعمال اضطلع بها خدمةً للدين، حتى وإن كان من فئة صالحة؛ ومن همُّه أن يكون يُشار إليه بالبنان ليمدحه الناس ويذكروا آثاره الرائعة قد يُخسف به مجازاة له بنقيض رغبته هذه؛ ومن مُني بشعور مقيت كهذا فهو عرضة لمثالب أخرى كثيرة أيضًا، ولا أحد يَقْدِر أن يحزو ما نوعية المثالب التي قد يرتكبها من رَكِبَتْهُ شهوة الشهرة مثلاً.

كل هذه الأمور مهالك ربما تعرض لكل قلب مؤمن حتى وإن كان

(٩٩) هو القسم السادس من المکتوب التاسع والعشرين من کتاب "المکتوبات" للأستاذ بديع الزمان سعيد النورسي، ويعني الأستاذ بـ"الهجمات الست": حب الجاه والشهرة، والخوف، والطمع، وفكرة العنصرية، والأنانية والغرور، وحب الراحة والدعة.

يعيش في بيئة مؤمنة، وقد تحمله في الآخرة على أن يقول "ليت" -نسأل الله السلامة-؛ أجل، إن من عجز عن أن يسترشد بدساتير الإخلاص، فراح يعزو إلى نفسه ما حققه من نجاح، ويستثمر ذلك في الشهرة، ويلهث وراء التبجيل والتقدير، سيتنفس الندم في الآخرة، ويتلوى أسى وأسفاً وحسرة وحرقة قائلاً: "يا ليتني لم أضيع هذه الأعمال ولم أهدرها بالجري وراء الثناء والتصفيق! ليتني لم أبحر إلى العدم صفر اليدين! ليتني لم أقع في تيارات آخرها الموت!"; والمؤلم حقاً أن آهاته وحسراته لن تغني عنه شيئاً أبداً، بل ستضاعف معاناته، وتزيد مصيبته.

تروس واقية من "ليت" القاضية

على المؤمنين إذاً أن يتصرفوا ههنا بعقلانية، وأن يعدّوا النجاة من الكفر والضلال أعظم نعم الله تعالى عليهم، وأن يتجنبوا سُبُل الكفر والضلال؛ لأن المعاصي يريد الكفر كما ذكر الأستاذ بديع الزمان رحمه الله.

يقول رسول الله ﷺ: "إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا أَخْطَأَ خَطِيئَةً نُكِتَتْ فِي قَلْبِهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءٌ، فَإِذَا هُوَ نَزَعَ وَاسْتَغْفَرَ وَتَابَ صُقِلَ قَلْبُهُ، وَإِنْ عَادَ زِيدَ فِيهَا حَتَّى تَعْلُوَ قَلْبُهُ، وَهُوَ الرَّأْيُ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ: ﴿كَأَلَّا بَلَ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ (سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ: ١٤/٨٣)" ^(١٠٠)؛ وذلك أن كل نكتة تنكت في القلب تستدعي نكتة أخرى، والقلوب تتكدر بالذنوب والمعاصي والسيئات وتسود بمرور الزمان؛ فإن لم تُطهَّر من المعاصي والذنوب بالتوبة والاستغفار ختم الله عليها، كما قال ﷻ: ﴿خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ (سورة البقرة: ٧/٢)، ﴿وَوُضِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ﴾ (سورة التوبة: ٨٧/٩)، ثم لا تعقل شيئاً من رسالة السماء الطاهرة، فما يكون منها إلا أن تقول في الآخرة: "ليت، ليت".

أما ما لا بدّ منه هنا للحيلولة دون الوقوع في براثن "ليت" القاضية، فهو بذل المجهود في طاعة المعبود بلا تقصير أو تعطيل، والتخليقُ بجناحي الخوف والرجاء؛ وتحقيق هذا رهْنٌ بالقلب الخاشع، يقول رسول الله ﷺ: "لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ لَخَشَعَتْ جَوَارِحُهُ"^(١١)؛ فخشية القلب تنعكس على الأفعال والسلوكيات، ويوماً بعد يوم تغدو الجوارح والأعضاء ترتجف من خشية الله تعالى، حتى إن قزحية العينين لتتراءى فيها ذبذبة الخوف من الله.

وعلى ذلك فإن نكس العبد رأسه حياء من جلال الله وعظمته، ورجاً سعة رحمته، وتمنّى على الله من فضله، وعاش حياته بهذا التوازن وتلك الدقة، وقى نفسه يوم القيامة من التردّي في الندم والحسرة.

وذكرُ العبدِ الدائمُ لحبيبه ﷺ يجنبه مثالب تسوق إلى عاقبةٍ وخيمةٍ قد تضطره إلى أن يقول في الآخرة: "يا ليتني"، يقول الشاعر التركي سليمان شلبي رحمه الله:

اذكر الله في كلّ نفس على الدوام فبذكره يصير كلّ شيء على ما يرام
وقد عبّر عن هذه الحقيقة أحد أولياء الله الصالحين، فقال:

ألا ليت حبيّ يحبّه الخلق أجمع وليت قصته مدار حديثنا وما أمتع
أجل، إننا إن ذكرنا ربنا حيثما حللنا، ونورنا مجالسنا بذكره تعالى، وأكسبنا أوقاتنا عمقاً لا تسعه الأبعاد، كنا ممن اتقوا مثالب كثيرة سائقة إلى قول: "يا ليتنا" في الآخرة.

”ليت“ من صُور الاستغفار

سؤال: هذه "ليت الفاجعة" فهل ثمة "ليت ناجعة"؟ وما المقياس

في هذا؟

الجواب: رأينا أن هناك "ليت" لا نفع منها أبداً في الآخرة، بل تُضاعف العذاب وتجعل المصيبة مصيبتين؛ وثمة "ليت" نافعة إيجابية محمودة ذات قدر في ديننا؛ وفصل ما بينهما النية، ومن النافعة أن سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: "إِنِّي لَا آسَى عَلَى شَيْءٍ، إِلَّا عَلَى ثَلَاثٍ فَعَلْتُهُنَّ، وَدِدْتُ أَنِّي لَمْ أَفْعَلْهُنَّ؛ وَثَلَاثٍ لَمْ أَفْعَلْهُنَّ وَدِدْتُ أَنِّي فَعَلْتُهُنَّ؛ وَثَلَاثٍ وَدِدْتُ أَنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْهُنَّ..." وذكر منها: "وَدِدْتُ أَنِّي يَوْمَ سَقِيفَةِ بَنِي سَاعِدَةَ كُنْتُ قَدْ قُذِفْتُ الْأَمْرَ فِي عُقَى أَحَدِ الرَّجُلَيْنِ: أَبِي عُبَيْدَةَ أَوْ عُمَرَ، فَكَانَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، وَكُنْتُ وَزِيرًا؛ وَوَدِدْتُ أَنِّي حَيْثُ وَجَّهْتُ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَى الشَّامِ وَجَّهْتُ عُمَرَ إِلَى الْعِرَاقِ، فَأَكُونَ قَدْ بَسَطْتُ يَدَيَّ يَمِينِي وَشِمَالِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﷻ؛ وَوَدِدْتُ أَنِّي سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فِيمَنْ هَذَا الْأَمْرُ - أَيِ الْخِلَافَةِ - فَلَا يُنَازَعُهُ أَهْلُهُ" ^(١٠٢).

أرى أن هذا الضرب من الندم في كلام الصديق الأكبر رضي الله عنه ليس إلا ثمرة المحاسبة ونتاج هم عميق وتشوف إلى الفقه في الدين وجعل الدين روحاً للحياة بميزان دقيق؛ فما أجزله من ثواب وما أرفعها من مرتبة حازها الصديق رضي الله عنه بهذا الندم ما كان لنا أن نبلغها؛ وقد أشار مفخرة الإنسانية ﷺ إلى قدره بقوله: "لَوْ وُزِنَ إِيْمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيْمَانِ أَهْلِ الْأَرْضِ لَرَجَحَ بِهِمْ" ^(١٠٣)، إنه الصديق الأعظم؛ هو من فعل - بفضل الله سبحانه - في سنتين وبضعة أشهر وبضعة عشر يوماً ما لم تستطع الدولة العلية العثمانية أن تفعله في ١٥٠ عاماً؛ ولم يضطهد الدول الضعيفة كما يفعل المستبدون، بل بثَّ إلهامات روحه في البلاد التي فتحها؛ نعم، لقد استهدف الوصول بالروح المحمدية إلى كل مكان مرَّ به وبمَّ وجهه إليه، والحق أنه

(١٠٢) الطبراني: المعجم الكبير، ٦٢/١.

(١٠٣) البيهقي: شعب الإيمان، ١٤٣/١.

هو مَنْ عَبَدَ الطَّرِيقَ لِلْفَتْوحَاتِ الْعَظِيمَةِ الَّتِي تَحَقَّقَتْ فِي عَهْدِ سَيِّدِنَا عَمْرٍو
ابن الخطاب رضي الله عنه.

نعم، إن هذا الضرب من "ليت" أضفى على قيمة هذه الشخصية العظيمة التي تَفَضَّلَ الناسُ جميعاً قيمةً أخرى؛ ولكل مؤمن "ليت" إيجابية ترفع قدره مثل: يا ليتني أحسنتُ استغلالَ شبابي، واقتطعتُ ساعتين من كل ليلة أصلي فيهما مائة ركعة، ليتني جَبَّتُ نفسي أهواءها، وُضِنْتُ يدي ورجلي وعيني وأذني عن الحرام حتى في عنفوان الشباب إذ تستثير فيه الغرائزُ والشهوات عادة، ليتني لم أنظر إلى الأغيار ولم يتسلل إلى عيني أي شبح غريب...

إن "ليت" هذه التي تزفر بها الصدور في ندمٍ مقترنةً بنية تحويل الآمال إلى أعمالٍ لتُعلي قدر الإنسان ومكانته؛ أما تلك التي ترددها الألسنة في الآخرة فما هي إلا حسرة وندامة ليس إلا، فالندم في الدنيا ضرب من الاستغفار، كلما عَرَضَ للمرء استغفر ربه، بل إنه ليستحيي أن يقول "أستغفر الله" مرة واحدة، وإنما يقول: "أستغفر الله ألف ألف مرة"، ويلجأ إلى الله بالتوبة والإنابة والأوبة، فإن طَرَقَ العبد بروح كهذه بابَ رحمته ﷻ عظم رجاؤه بأن مولاه لن يخيب آهاته وأَنَاتَه، بل سيتغمده بواسع رحمته وفيض إحسانه.

الاستغفار

سؤال: ما الذي تؤمله القلوبُ المؤمنة من الاستغفار، لا سيما في أيامنا هذه التي تَفَشَّت فيها الذنوبُ في كلِّ الأنحاء وكأنها مرضٌ معدٍ؟ وهل هناك أوقاتٌ معينة يحسُن تحرُّبها للاستغفار فيها؟

الجواب: جاء في الخبر: "مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ"^(١٠٤)، والمقصود الأصلي من التكاليف الشرعية هو الحفاظ على هذه الفطرة الأصلية التي فطر الله الناس عليها، أي إن الإنسان مكلفٌ بالحفاظ على الفطرة الأصلية التي فطره الله عليها حتى يلقاه سبحانه.

وبينما تهدف كلُّ "الْمُنْجِيَّاتِ" إلى حماية الفطرة الأصلية، ترمي كلُّ "الْمُهْلِكَاتِ" إلى إفساد الفطرة الأصلية؛ فليعمل الإنسان على تشييد حصون منيعة يُجابه بها الذنوب المهلكة، ويتحرى فيها الأعمال الصالحة دائماً، وليبحث عن وسائل يحافظ بها على فطرته ويحفظها من أن تكون عُرضة للتلوث والفساد.

إنَّ في كلِّ ذنبٍ إفساداً للطبيعة الإنسانية، ومن تعرَّض لمثل هذا الفساد لا تتأتى إعادته إلى طبيعته الأصلية إلا بالاستغفار، أي إن الذنوب تُحدث تَغْيِراتٍ سلبيةً في ماهية الإنسان، وشيئاً فشيئاً يغدو القلب الملوث

(١٠٤) صحيح البخاري، القدر، ٤٣؛ صحيح مسلم، القدر، ٢٢.

بالآثام عاجزاً عن القيام بوظيفته، وكلّ ذنب من شأنه أن يُبعد الإنسان عن الله ويقرّبه إلى الكفر؛ ولا خلاص من الآثام التي تقرب إلى الكفر إلا بالاستغفار، ولا سبيل إلى تطهير القلب من الأدران وما نُكت فيه من نكات سوداء إلا به.

الطب الوقائي

الأصل أن يتخذ الإنسان في البداية موقفاً حازماً من الذنوب والآثام، فلا يدنو ولو إلى أصغرها، وعليه في هذا أن يسعى إلى تهئية جوِّ نقيٍّ طاهرٍ يجنبه الوقوع في الآثام، وأن يفرّ فراره من الأسد من بيئته تُغريه بالمعاصي، وإنّه لعسيرٌ إلا على قلبٍ مؤمنٍ يشعر في وجدانه أن كل ذنب يقترفه يهوي به في نار جهنم ذرّكة، وأي قلب لا يُنكر الذنب هو قلب ميّت.

أجل، إن القلب إن استساغ الذنوب، ولم تُثقله المعاصي ولا أزرّقه ما ارتكب من زلات، فهو كالجسد الميت، فالقلب المؤمن يستنكر الذنوب لا محالة، والاستغفارُ أول عملية يجب فعلها تجاه الذنوب.

إنّ قولك "أستغفرُ الله" بصيغة المضارع معناه: "اللهم إنك عفو غفور، فاعف عني واغفر لي ما حييت"، فللعدول عن صيغة الماضي إلى المضارع الدالّ على الزمن المفتوح مغزى عميق جدّاً؛ مفاده أن العبد يعمّم طلب المغفرة من ذنب ارتكبه في الماضي على المستقبل كله.

قد يغفر الله ذنوب عبده بالاستغفار مرة واحدة، لكن على العبد ألاّ يكتفي بمرة واحدة يسأله فيها العفو عن عشرات يديه وعينيّه وأذنيه، بل لا بدّ أن يندم طوال عمره على ما اقترفه وإن كان ذنباً واحداً، ويتوجه إلى الله قائلاً: "اللهم إني أستغفرك، ولن أزال أسألك المغفرة ما حييت،

فلا تكفيني مرة واحدة، بل أسألك المغفرة الآن وسأظل أبداً أسألك وأتندّم على ذنب ارتكبته، اللهم فاعفر لي".

أجل، على المؤمن أن يفكر كلما اقترف ذنباً أن من العيب الفظيع أن يسلك طريق السيئات وقد هداه الله إلى طريق الحسنات، وأن يعلم -وقد وعده الله بالجنة- أن التعامي عن هذا الوعد والاستغراق في الآثام قباحة وأي قباحة، فعليه أن يستحي، ويتوجه إلى الله بالاستغفار أبداً، فيستغفره على ذنب واحد آلاف المرات، بل ألف ألف مرة، حتى يُطهر وجدانه بهذا الاستغفار.

إكسير يستأصل شأفة النزعة إلى الشرّ

الاستغفار كما يُعيد إعمار الفطرة المخربة، يستأصل شأفة النزعة إلى الشرّ أيضاً؛ لأن ملازمة التطهر بالاستغفار تمنع استحداث مناخ يدعو إلى ذنب جديد، أي إنّ قلبه تنقى من أي فيروس يستدعي ميكروبات أخرى؛ وأيضاً قد يُضعف الله بصورة لا نعلمها نزعة الإنسان إلى اقتراف الذنوب والآثام، يقول تعالى: ﴿مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ (سُورَةُ الْفُرْقَانِ: ٢٥/٧٠)، فالآية تبشّر من يتوجهون إليه سبحانه بالإيمان والعمل الصالح والاستغفار والتوبة بأنه سيبدّل سيئاتهم حسنات؛ أجل، إذا توجه العبد إلى الله محاً الحقّ تبارك وتعالى ما في صفحات كتابه من آثام اقترفها، ولا يتركها فارغة بل يملؤها بواسع رحمته بالحسنات، وهذا تجلّ آخر لرحمته التي تسبق غضبه.

وللأستاذ بديع الزمان رحمه الله تفسير آخر لهذه الآية: ذكر أن الله تعالى قد يبدّل نزعات الشرّ لدى من أناب إليه بالتوبة والاستغفار بنزعات إلى الخير، أي إنّ اقترف العبد ذنباً ثم أناب إلى الله فتاب توبةً نصوحاً، قال الله له: "رجعت إليّ؛ سأنعم عليك فأبدّل نزعات الشرّ لديك نزعاتٍ إلى الخير".

أوقات مهمة للاستغفار

يُسَنُّ الاستغفار ثلاثًا عقب الصلوات المفروضة^(١٠٥)، أمَّا فضل الاستغفار عقب أداء أَحَبِّ العبادات إلى الله وأقرب ما يكون العبد من ربه فله سببان:

أولهما: أن الصلاة معراج المؤمن إلى ربه، فمن سوء الأدب مع الله في عبادة هذا فضلها أن يذهل العبد عن صلاته، ويسيح في أموره الخاصة، ويشتغل قلبه بالأمور الدنيوية عن جلال وقوفه بين يدي الله تعالى، ومثل هذه التصرفات تنم عن غياب الوعي أو العناية بالصلاة فتقتضي الاستغفار؛ إذ كان ينبغي أن يهرول العبد وهو بين يدي الله تعالى سعيًا وراء لطائف أشربها قلبُ سيد السادات ﷺ يوم المعراج.

ثانيهما: الدعاء بعد الصلوات مظنة القبول، وله فضل خاص؛ فهذا المقام أرجى لقبول الدعاء والتضرع، ولا شيء أحوج للعبد من مغفرة الذنوب؛ لذا وصَّى سيدنا رسول الله ﷺ بالاستغفار والتوجه إلى الله في هذا المقام، فالصلوات الخمس أساس وفرصة مهمة للاستغفار.

ولعل من أهم أوقات الاستغفار ما أشارت إليه الآية الكريمة: ﴿كَأَنُوقْلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ۖ وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ (سورة الدَّارِيَات: ١٧/٥١-١٨)، تشير هذه الآية إلى وقت مهم للاستغفار، فهي تشي على من يقوم بالأسحار يستغفر الله ويجأ إليه ويطلب السجود حتى لكانه ينسى أن يرفع رأسه منه، ثم ترفعُ هذا الشاء إلى أهل السماء والروحانيين وجميع المؤمنين؛ وفي الآية إرشادٌ للمؤمنين إلى تحديد الهدف، لأن

وصف المؤمنين في الكتاب والسنة تقدير لهم، ودعوة إلى نصب هدفٍ أمامهم ينبغي الوصول إليه؛ فإن القيام في السَّحَر والنَّاسُ نيامٌ، والتعبد لرب العالمين بصلاة التهجد ولو ركعتين، والاستغفار بعدها، عملٌ عظيم في لحظات خاصة لا يرى الإنسان فيها أحدًا.

والأوقات التي يرقّ فيها القلب، ويشعر الإنسان بثقل ذنوبه، وتفيض فيها مشاعره، لا بد أن تُستغل استغلالاً جيداً في الاستغفار، لأنها لحظات تهبّ فيها نسائم القرب.

وسرعة الأوبة إلى الحق تعالى كلما ارتكب العبد وزراً وذنباً مؤثراً على استغلال أول لحظة يُدرك فيها الإنسان أنه خطا خطوةً نحو الذنوب، وهذه اللحظة مهمة للشروع في الاستغفار؛ لأن الذنب يشبه الدُّوامة، ويُورث صاحبه الإدمان عليه؛ ولذلك ليس كل مَنْ غرق في الذنوب بقادر على أن يتخلص منها، بل إن الغارق في مستنقع الذنوب والآثام -إن لم يعزم على الخروج منه عزمًا حقيقيًا وعجز أن يعطي إرادته حقّها- قد يتمنى يومًا أن لو لم تُحرّم تلك الذنوب؛ وهذا يعرّض الإنسان لمصيبة اعتقادية، وإنما هلك من هلك عامةً بهذا الضرب من الخواطر، فمن الأهمية بمكان أن يتوب الإنسان فوراً من الذنوب التي وقع فيها قائلاً: "إن هذا الطريق يؤدي إلى المستنقع، فلو خطوت بضع خطوات قد أصل إلى موضع يستحيل الرجوع عنه".

والأوقات المذكورة وإن كانت فرصةً للاستغفار إلا أنه لا يُشترط تخصيص وقت معيّن له، ولا يصح حصرُ الاستغفار بها ألبتة، فللعبد أن يطلب العفو والمغفرة في أي وقت: بكرة وعشيًا، ليلاً ونهارًا، وأن يستثمر كل لحظة من عمره في الاستغفار؛ أجل، إن الإنسان عندما يجد

الفرصة له أن يخلو بنفسه ويستغفر الله ويتوجه إليه تعالى بالتوبة كيفما كان راکعاً أم ساجداً أم جاثياً؛ وكذا في كل أحواله: عندما يذهب من مكان إلى آخر، أو يقود سيارته، أو ينتظر أحداً... بوسعه أن يناجي ربه سبحانه بأي شكل من أشكال الاستغفار، والأصل أن يستغل الإنسان كل لحظات حياته في هذا، لأن الموت يأتي بغتة، واستقبال الموت بشفاءٍ رطبة بالاستغفار وسيلة مهمة جداً لارتحال الإنسان إلى الآخرة طاهراً مطهراً.

سؤال: الاستغفار بوتقة تطهير وتزكية للقلوب المؤمنة، فما هي أصوله وآدابه؟

الجواب: على العبد عند الشروع في الاستغفار أن يتذكر جلال الله وعظمته، ولا ينفك عن التعظيم والتكبير والتسبيح له جلّ في علاه.

وورد في هذا روايات كثيرة عن سيدنا رسول الله ﷺ تدل في جملتها على ندب البدء في الاستغفار بهذا الذكر: "اللَّهُ أَكْبَرُ كَبِيرًا، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ كَثِيرًا، وَسُبْحَانَ اللَّهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، نَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الْأَحْزَابَ وَحْدَهُ، لَا شَرِيكَ لَهُ".

ويُستحسن بعد تمجيد الله وإجلاله وتعظيمه الصلاة والسلام على سيد السادات ﷺ؛ فهذا ادعى لقبول الاستغفار، لأن الصلاة والسلام على سيدنا رسول الله ﷺ دعاء مستجاب، وهي أيضاً فرصة عظيمة للمؤمن ووسيلة مهمّة للاتصال بمفخرة الإنسانية صلوات ربي وسلامه عليه، فالتوجه إلى الله تعالى استشفاعاً بالصلاة على سيد الأوّابين ﷺ قبل الشروع في الاستغفار يعدّ وسيلة أخرى للقرب من الله ﷻ.

ويحسن الاستغفار لأمة محمد قبل الاستغفار لأنفسنا كما نفعل في صلاة الحاجة، كأن نقول: "اللهم اغفر لأمة محمد ﷺ، اللهم ارحم أمة

محمد ﷺ، وهو دعاء "الأبدال" صباح مساء، وطلبُ الخير لأمة محمد ﷺ وسيلة لقبول الاستغفار، بل ولك أن تقدّم نفسك إن كنت تعد نفسك أعتى العصاة في هذه الأمة: "اللهم اغفر لي واغفر لأمة محمد، اللهم ارحمني وارحم أمة محمد ﷺ".

طلب المغفرة بأحسن الحديث

وللعبد بعد هذه الديباجة أن يتوجّه إلى الحق ﷻ بأمثال الآيات التالية، طمعاً في غفران ذنوبه وخطاياہ:

﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٧/٢١)،
 رَبِّ إِنِّي ﴿مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ: ٨٣/٢١)،
 ﴿رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ (سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ: ١١٨/٢٣)،
 ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ (سُورَةُ الْقَصَصِ: ١٦/٢٨)،
 ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ (سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ: ٤١/١٤)،

﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ: ١٤٧/٣).

هذه أدعية من القرآن، ووردت أدعية رائعة في السنة الصحيحة في الاستغفار أيضاً، منها: عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: "عَلِّمْنِي دُعَاءً أَدْعُو بِهِ فِي صَلَاتِي" قَالَ: "قُلْ: اللَّهُمَّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ظُلْمًا كَثِيرًا، وَلَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ، فَاغْفِرْ لِي مَغْفِرَةً مِنْ عِنْدِكَ، وَارْحَمْنِي إِنَّكَ أَنْتَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ" (١٠٦)؛ ومحلّ هذا الدعاء السجود وعقب التشهد وعند الاستغفار.

دعاء آخر سَمَّاهُ عليه أكمل التحيات "سيد الاستغفار": "اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَى عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ لَكَ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ"؛ قال ﷺ: "مَنْ قَالَهَا مِنَ النَّهَارِ مُوقِنًا بِهَا، فَمَاتَ مِنْ يَوْمِهِ قَبْلَ أَنْ يُمَسِّيَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؛ وَمَنْ قَالَهَا مِنَ اللَّيْلِ وَهُوَ مُوقِنٌ بِهَا، فَمَاتَ قَبْلَ أَنْ يُصْبِحَ، فَهُوَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ" (١٠٧).

تَضَرَّعُ حَتَّى تَتَطَهَّرَ

وللعباد أن يسجد ويكثر من هذا الدعاء حتى يرضيه التعب والجهد، ويشعر بالتطهر والاطمئنان في قلبه: "يَا حَيُّ يَا قَيُّوْمُ بِرَحْمَتِكَ أَسْتَغِيثُ، أَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ وَلَا تَكِلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ"، وزاد بعضهم: "وَلَا أَقْلُ مِنْ ذَلِكَ".

ويستحب للعباد أن يدعو بهذا الدعاء بوصفه نفحةً قلبيةً، وقد كان رسول الله ﷺ يقوله إذا استيقظ من الليل: "لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، سُبْحَانَكَ، اللَّهُمَّ اسْتَغْفِرْكَ لِدُنْبِي، وَأَسْأَلُكَ رَحْمَتَكَ، اللَّهُمَّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَا تُزِغْ قَلْبِي بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنِي، وَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً، إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ" (١٠٨).

وعلى كل إنسان أن يرى أخطاءه وعيوبه وذنوبه، وينقدها بما يلائم منزلته الخاصة؛ فيسبح الله تعالى ويستغفره آلاف المرات يوميًا، وصحَّ "أن أبا هريرة ؓ كان يسبح كل يوم اثنتي عشرة ألف تسبيحة، يقول: "أَسْبَحْ بِقَدْرِ ذَنْبِي" (١٠٩).

(١٠٧) صحيح البخاري، الدعوات، ٢.

(١٠٨) سنن أبي داود، الأدب، ٩٨.

(١٠٩) ابن حجر: الإصابة، ٣٦٠/٧.

ولا أظن أنه اقترف ذنباً ما، إنه الأسد الذي قدم من دؤسٍ ولحق بأصحاب الصُّفَّة، وصحب مفخرة الإنسانية ﷺ مدةً طويلةً، وهو أكثر من روى عنه ﷺ، فصار بعد رحيله المنهل العذب المورود الذي يردّه الناس جميعاً، وكان يرى الاستغفار ضرورياً باعتبار أفقه الخاص، وحين نضع نُصْبَ أعيننا حياتنا الحالية التي أغرقها الذنوب فإننا لو استغفرنا الله ثلاثين ألف مرة في اليوم لكان قليلاً.

زد على هذا أنه يمكن اعتماد استغفارات الأكابر المذكورة في كتاب "القلوب الضاربة" وردّاً، فهذا الإمام الحسن البصري كان عنده من العمق ما يخيّر العقول، وكان شديد المحاسبة لنفسه، ويمكنكم أن تقرؤوا ورده في الاستغفار^(١١٠) مقسّماً على أيام الأسبوع كما كان يفعل، وكان يبدأ الاستغفار بالصلاة والسلام على النبي المصطفى ثم يعدّد ما يعده ذنباً لنفسه، ويختم استغفاره بالصلاة والسلام أيضاً. والحقيقة أنه لم يكن عصره ولا طبيعته هو ملائمين لاجتراح تلك النوعية من السيئات؛ أجل، لا يمكن لإنسان يذكر الله في كلّ أحيانه، ونذر حياته للكفاح في سبيل الحق أن يقع في هذا الضرب من الذنوب؛ ولا أحد يدري، فربما كان يتوب إلى الله متضرعاً ويستغفره متحرّقاً على الخواطر والخطرات، ونحن لو كررنا مرتين أوراذه هذه التي كان يقرؤها كل ليلة مرةً فإنه لقليل؛ لأن ذنوبنا أكثر بلا ريب، ولأننا لم نبلغ مبلغه ولم نتقدم عليه في الدين.

وعلى المستغفر أن يختم تضرعه وابتهاله الجاري من قلبه على لسانه بمثل ما بدأ به من صلاة وسلام على سيد السادات ﷺ، فلا أرحى في القبول من دعاء بين دعائين مقبولين، فليصلّ ويسلّم على الرسول الأكرم ﷺ مرةً

أخرى في نهاية دعائه كي يطير استغفاره بجناحي دعاءين مقبولين ويبلغ معارج القبول.

وأذكر بأنَّ كلَّ كلمة يُتفوّه بها في مقام الاستغفار ينبغي أن تُقال عن وعي وشعور، فما يُقال في غفلة وبلا وعي كُلُّه سوءٌ أدب مع الحق تعالى، وقد يكون كذباً؛ فينبغي في كلِّ كلمة أن تنبع وتخرج من أعماق القلب، ولا بد أن تترك كلَّ واحدةٍ منها أثراً حيث مرّت؛ بل على الإنسان حين ييوح للحق تعالى بجوانيته في وعي كهذا ويسأله المغفرة أن يتلوى حياءً من ذنوبه، ويقشعر ندماً وحسرةً حتى كأن قلبه قد توقّف.